

كيف نعلم أبناءنا ؟

وما الغرض من التعليم ؟

للدكتور زكي مبارك

مناهب ١

هي المناهب التي يمانها من يواجه الحقائق بأساليب صريحة بريئة من الرياء ... ومن أعجب العجب أن الناس يطالبون الكاتب بأن يتحدث عن كل شيء ، مع أنهم لا يسمحون له بشيء من الصدق إذا تحدث عن أشياء تمسهم من قريب أو من بعيد . وهذه الظاهرة من أسباب ضعف الروح البيانية ، ومن أسباب قصور الأدب عن وصف المجتمع الحديث

إن الأمم الحاربة لم تشغلها الحرب عن التفكير في شؤون التعليم والتنشئة ، لأن تلك الأمم عهدت إلى كل طائفة من الطوائف جانباً من جوانب الحياة القومية ، فبقى الجندي جندياً ، والتاجر تاجراً ، إلى آخر ما هنالك من الطوائف ، وصار لزاماً أن يبقى المعلم معلماً في حدود ما يملك من القوى النفسية والروحية والعقلية

ونحن لم نشترك في الحرب من جانبها الدموي — وإن كان أذاها وصل إلى كثير من مراقبنا الحيوية — وهذا الحياء قد استبقى قواها وأدّخرها لإنجاز شؤون التعليم في مراحلها المختلفة ، فمن الواجب أن نبذل جميع الجهود الممكنة في خلق التعليم خلقاً جديداً ، بحيث تواجه تقلبات ما بعد الحرب ، ونحن على بينة من مطالب العصر الجديد

قال معالي الهلال باشا في خطبته بمحاضرة جلالة الملك يوم افتتاح جامعة فاروق الأول : إن هذه الجامعة هي الجامعة الوحيدة التي أنشئت في العالم كله أيام الحرب

وهذا صحيح ، ولكن ما السبب في تفرد مصر بهذه المزية ؟ يرجع السبب إلى أن إعفاءنا من الحرب البدوية لم يدعنا إلى إعفاء أنفسنا من جرب الجهل والجهود ، فنحن نقاتل في

ميدان هو أصعب ميادين القتال ، ونحن نواجه مصاهب تزلزل القلوب والعقول ، وهذه محمّدة قليلة الأمثال

أكتب هذا وقد تمتّعت ناسٌ وتقصّبوا لأنهم رأوا في المقال الأسبق عبارات في نقد الطرائق المتبعة في تعليم الإنشاء ... فهل كان يجب أن أقول إن كل شيء على ما يرام ، وليس في الإمكان أبدع مما كان ؟

الكاتب يحاسب على المجاملات ، ولا يطالب بالمجاملات ، وأول طائفة خليفة باحترام حرية الرأي هي طائفة المدرسين ، لأنهم دعاة الحرية الفكرية ، ولأن واجبه الأول هو خلق اليقظة العقلية ، فما يجوز لأحدهم أن يعتب أو يفضب إذا رأى كاتباً يدعو إلى التفكير في وزن ما درج عليه من طرائق التعليم ، عساه ينتقل من حال إلى أحوال في الإفهام والتفهيم والشرح والبيان

واجب المدرس أن يصنى لكل قول ، وأن يحترم بكل رأي . واجبه أن يدرك أن كل شيء في تجدد ، وأن يفهم جيداً أن للتعليم سياسات تتغير من يوم إلى يوم ، وأن التلميذ الواحد قد يساس في درس الأدب بغير ما يساس في درس الإنشاء ، وأن التدريس هو في الأصل رياضة مختلفة المسالك والألوان

وإذا ضاق صدر المدرس بما يقرأ أو يسمع من ضروب النقد ، فمند من تنتظر رحابة الصدر ورزاة الأحلام ؟

وتأذّي فلان من أن يقال إن الإنشاء قد بصمّ على بعض المفتشين ... فما عيب هذا القول وفيه شيء من الحق ؟ وبماذا نجيب إذا سئلنا عن جهود مفتشى اللغة العربية في خدمة الحياة الأدبية ؟

هل يكفي أن يكون الكاتب كاتباً بالقوة لا بالفعل ، كما يمتدح علماء المنطق ؟

إن المفتشين رُفِعوا إلى مراكمهم باسم التفوق في علومهم ، فهل نلام إذا دعوناهم إلى زكاة ذلك التفوق ؟

مصر غنية بالثروة العلمية ، فهل تراها غنية بالثروة البيانية ؟ وهل من الحق أن رجال التعليم عندنا أكثروا من الجهاد العلمي والأدبي إكثاراً ليس بعده زيادة لمستزيد ؟

كم كتاباً صدر عن رجال التعليم في مدى عشر سنين ؟ وما هذا الزهد في البحث والتأليف ، الزهد الذي يسمح بأن تنتهي حياة الرجل قبل أن يدين أمته بكتاب جيد ؟ إلى أخشى أن يضيع زمام الحياة الأدبية من أيدينا إن تركنا الإبداع في الأدب ، واكتفينا بوضع الموجزات في القواعد والتطبيقات ، كما يفعل بعض الزملاء .

صلة المدرسين بالحياة

قبل أن أواجه مشكلات التعليم أنصّل مسألة شغلتي منذ أعوام ، وهي مسألة الفلق الذي يساور المدرسين من الوجهة المادية ، وهو في رأيي قلق يئثر بالخير ، ولا يندثر بالشر كما تعود بعض الناس أن يقول

لو أحصينا مطالب المدرسين لرأيناها في الجلة متصلة بالمطالب المعاشية ، فهل يكون في هذه الظاهرة برهان على أننا نواجه عصرأ أفضل من المصور الخوالي ؟

أنا أقول بذلك ، ولا يؤذيني أن أرى مدرساً يرجو أن تنصفه وزارة المعارف ليعيش في رخاء

ولكن هذا الكلام يحتاج إلى شرح ، فلنقدم الشرح : كان التعليم من أعمال الكهّان والأخبار والرهبان ، وحيوات هؤلاء كانت مريحة ، لأن الجمهور كان مسئولاً عن تربيتهم عابستهم ، فلم يكرهوا في احتياج إلى مزاوله أعمال المعاش يضاف إلى ذلك أن التعاليم التي كان يقدمها أولئك الأقوام إلى الناس كانت ترمي إلى غاية أخروية لا دنيوية ، فكان من المقبول أن يعيشوا عيش الزهاد ليفلحوا في أداء رسالتهم الروحية أما التعليم في هذه الأيام فله غاية تخالف تلك الغاية ، هو تعليم يراد به فهم الحياة الواقعية ليكون أداة من أدوات التملك والاستيلاء نحن نعلم أبناءنا ليسودوا في دنياهم ، ولا نرضى لأبنائنا أن ينتظروا الثواب من المحسنين ولو كانوا في سماحة الأنبياء

نحن نرجو أن تكون يد أبنائنا هي العليا بفضل التعليم الصحيح . نحن نحب لهم أن يتسلحوا بأسلحة العصر الحاضر ، عصر الضال والصيال ، ونكره أن يذلوا باسم الزهد في الدنيويات ومن الذي يوحى إليهم تلك المعاني ؟

أهو المعلم المترهب الذي ينتظر إفضال الفضيلين ؟ إن فاقده الشيء لا يسطيه ، والمعلم الذليل لا ينشئ تلاميذ أعزاء يجب أن يكون المعلم ابن زمانه بالقول والفعل ، وأخلاق هذا الزمان لا تمنح العزة لمن يعيش بفضل الصدقات

كانت غاية المعلمين من الرهبان أن يخلقوا طوائف جديدة من الرهبان ، وكان التشرّد في أفبح صوره يجد من يسمه بوسم التوكل على الله ، فأين نحن من تلك الغاية المعجزة ؟ إنها منا بعيد وإذن يتحتم أن يكون المعلم رجلاً موصولاً بالأواصر بالمنافع الدنيوية ، ليوجه تلاميذه إلى المنافع الدنيوية

يتحتم على المعلم أن يدرك ما في الحياة من تعقد واشتباك ، ليروض تلاميذه على مغالبة ما في الحياة من تعقد واشتباك

كان المعلم راهباً ، وقد بقيت من هذه النزعة بقايا نجدها في بعض البيئات ، ولكنها لا توأم العصر بأي حال

يجب أن تسبق الأبوة الروحية بأبوة حسية ... ومعنى هذا أني أرى أن المدرس لا يعرف حقوق تلاميذه عليه إلا إن كان له أبناء المعلم الحق في هذا الزمان هو المعلم الذي يعيش كل العيش ، فيكون له مصالح تفرض عليه أن يفهم الاتجاهات المختلفة في هذا الجيل

والعيش على هامش الحياة عيش ضائع ، ومن عاش كذلك فليس بأهل لأن يخلق ذوق الحياة في صدور التلاميذ

وأين التلميذ الذي يحترم أستاذاً فقير الجيب ؟ الأصل أن تقول للتلميذ : تعلم لتكون في مثل جاء أستاذك ؛ والجاه في هذا الزمان يُجرح بأيسر بادرة من بوادر الإفلاس والأصل أيضاً أن يكون المعلم تاج المنافع ... فإن افتقر العالم فسيكون افتقاره شاهداً على أن قوة العلم هباء في هباء

وهنا مشكلة تستحق الدرس ، وهي تحديد المراد من العلم ، فما هو العلم المنشود ؟

هو العلم الذي يمنح صاحبه السيطرة على ناصية هذا الزمان هو علم العصر الحديث ، ولو تمثّل في فهم أساطير الأولين أنا لم أتمود خداع قرأني ، وأنا أوصيهم بما أوصى به نفسي ، فليسمعوا هذا الكلام إن كانوا لأنفسهم أوفياء

ونحن لا نطالب الدولة بحق الإنصاف ، إلا إن أقنأنا مئات
البراهين على حقنا في الإنصاف

ولن يكون ذلك إلا إذا وثقت بنا الدولة ثقة تنفيها عن تلك
الجيوش من المفتشين

إن احتاج المدرس إلى رقابة المفتش فليس بمدرس
والأساس أن تكون المدرسة غزواً روحياً للبيت ، فيكون
الطفل أستاذاً لأبويه ، لأن له أسندة من روحانية أساتذته الفضلاء
والأساس أيضاً أن يُخَوَّفَ التلميذ بسلطان المدرسة عليه ،
فلا يشكوه أهله حين ينحرف لغير السلطة المدرسية
ومتى يتيسر ذلك ؟

أليكون غنى المدرس هو الوسيلة كل الوسيلة إلى السيطرة
على التلاميذ ؟

وكيف وفي آباء التلاميذ من يكون إرادته أضخم من مرتب
وزير المعارف ؟

هية المدرس ترجع إلى التمكن من العلم الذي يدرسه
التمكن الفائق الذي يُشعر التلاميذ بأن أساتذهم من أكابر العلماء
إن استطاع المدرس أن يلقى تلاميذه كل يوم وفي يده كتاب
جديد فليفعل ... وإن استطاع المدرس أن يبدل تلاميذه على جميع
ما يجده من الآراء العلمية والأدبية فليفعل ... وإن استطاع
أن يرشدهم إلى طيبات الحياة الفنية فليفعل
المهم هو أن يسيطر على تلاميذه سيطرة روحية تصغر بجانبها
سيطرة الجاه والمال

وإذا وصل إلى هذه النقطة قلن بضيره أن يقال إنه من الفقراء
وأنا لا أطلب بإنصاف المدرس من الوجهة المادية إلا لأضمن
صلاحيته لفهم مطالب الحياة ، لأنني أعتقد أن الرجل المنسحب
من ميدان الحياة لا يصلح لشيء ، وأكاد أجزم بأن حب الحياة
يزيد في قوة الأخلاق

المعلم الذي أنشد لأبناء هذا الجيل هو رجل ضرور بمواهب
إيجابية لا سلبية ، هو رجل يسبق زمنه بأزمان ، هو رجل
يرجو تلاميذه أن يكون هاديه إلى صراط الحياة في معناها
الترفع عن الغفلة والجمود

إن وزارة المعارف أنشأت معهداً جديداً هو معهد الدراسات
العالية ، وبه أرادت أن تردّد المدرسين بأزواد علمية وأدبية
لم يذوقوها من قبل

فما صير هذا المهمل ؟

إن بقاءه رهين بأحوال المدرسين ، وقد قيل إنهم في احتياج
إلى مزيد من التنقيف

وأقول : إن من العيب أن نحوج وزارة المعارف إلى أن
تُشغَل بتتقينا بعد أن شبينا عن الطرق منذ زمان

لا يجوز أن نحوج وزارة المعارف إلى شيء من هذا القبيل ،
وإنما يجب على كل مدرس أن يكون نائباً عن وزير المعارف
في أداء الواجبات الوطنية من الوجهة التعليمية

يجب أن يقترب اليوم الذي يستغنى فيه المدرس عن رقابة
المفتش .

ولن يقترب ذلك اليوم إلا حين يوجد التلميذ ، التلميذ الذي
يجب أن يتعلم ، التلميذ الذي يفهم المدرس على أن يستعد للمدرس
كل الاستعداد

ومتى يوجد ذلك التلميذ ؟

متى يوجد التلميذ الذي يخلق المدرس ؟

متى يوجد الفتى الذي يعزّ عليه أن تمر أيامه بلا ارتفاع ؟
سنرى محاولات لبعث الروح السكون في صدر التلميذ ...
فأبى اللقاء في الأسبوع المقبل وهو قريب .

رؤى مبارك

حكمت محكمة الشرقية العسكرية تاريخ ١٣ فبراير سنة ١٩٤٢ في
القضية رقم ٣٦٦٣ سنة ١٩٤٢ بتفريم عليه محمد الأفرع الفلاح بالتلبن
خمين جنبها لامتناعه عن بيع الادره الفائضة عن حاجته للحكومة

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٩٤٣ في
القضية رقم ١٩١ بنذر الرقازيق سنة ١٩٤٣ بحبس أحمد ابراهيم دسوقي
الفلاح بالتار ثلاثة شهور بشغل وتغريمه ١٠٠ حبه والمصادرة لثوب
لبس اذرة بأزيد من النعمرة

حكم في القضية ١٠٨ سنة ١٩٤٣ المردب لأحر عيسى هاشم عبدالصالح
بجبت ثلاثة شهور مع الشغل وغريمه ١٠٠ جنبه والتغريم والتلبن
والمصادرة لبيعه الزيت بأزيد من السعر المحدد

حكم في الجمعة رقم ١١٢٦ عسكرية حلوان سنة ١٩٤٢ بحبس
عبد الفتاح عليان ثلاثة شهور مع الشغل والمصادرة والتغريم والتلبن
والتلبن لبيعه (اللحم) بأزيد من السعر المحدد